الأهرام

المصدر: الحياه

التاريخ : ١٧ فبراير ٢٠٠٥

جريمة معلنة... ستتكرر

■ اســوأ ما في اغتيال رفيق الحريري انه كان جريمة معلنة مسبقاً. ومع ذلك ترك المجرم حراً في اختيار التوقيت والمكان والأدوات. ثمة جرائم معلنة اخرى، لها اسماء ضحايا، وليست لها اســماء مجرمين. لكنهم مرتســمون منذ زمن في وجدان اللبنانيين الذين كانوا يعرفون انهم سيفعلونها في أي لحظة. ولا رادع يمنعهم من تكرارها.

كان رفيق الحريري أقوى المعارضين وإن لم يصنف نفسه منهم. وكان أقوى الموالين حتى وهو خارج صفوفهم. لكن القتلة لم يعترفوا له بهذا الموقع الوســطي. ولعل اســتهدافهم له هو الخطــأ الذي سيشــكل بداية نهايتهم. ارتكبوا جريمة بحجم وطــن، لقتل هذا الوطن، لإبادة حلم وأمــل صنعهما رفيق الحريري، وعاش البلــد عليهما بمزيج من الامتنان الطيب والانتقاد المرير والارتياب المتحفز. لكن هذه ســمات الصراع الســلمي، فلا الممتنون يقنعــون، ولا المرتابون يهــدأون، ولا المنتقــدون يبلغــون حد القتل. هذا بلــد عاش حرباً أهلية قاســية ولا يريد لها ان تعود.

من يحمي المعارضة السلمية الآخذه في النمو؟ هذا هو السؤال الكبير الذي طرحته الجريمة في لبنان، خصوصاً في المجتمع الدولي، بعدما أصبح الشارع غير آمن لأي معارض، هذا إذا كان آمناً في بيته. جريمة الاثنين كشــفت زيف الأمن الذي تشــكل بعــد انتهاء الحرب، وأصبح الجميع يعرفون ان النظام انشــأ قوى التخريب بموازاة قوى الأمن، وانه يريد ان يجبر هذه على العمل في خدمة تلك، يتســاوى في ذلك ان تلطخ «الخلايا المســتيقظة» ســمعة الأمن المفترض انه تابع لدولة. جريمة الاثنين كانت رســالة واضحة الى جميع المعارضين، فلا أمن في الداخل لحمايتهم ولا قانون ولا برلمان ولا دستور ولا اخلاق.

مؤلــم ان ينعدم امــكان التعويل على الدولة وأمنها. مؤلم ان يعطــي الداخل مثل هذا الدليل الوحشــي على قدرته الفائقة على القتل الى هذا الحد وبهذا الشكل، على الإيذاء والتخريب الى هذا الحد وبهذا الشــكل. كان رفيق الحريري مدّ نفســه بأفضل حماية ممكنة، لذا يمكن تصور مشــاعر المواطنين بعد هذه الجريمة. لقد استعادوا بلحظة قلق الحرب الأهلية وهواجسها. ولم يعد لديهم اي رمق من ثقة في هذه التي ســميت دولة والتي ابتهجوا لنهوضها من ركام الحرب وعبث الميليشــيات، وإذا بها تتجه مرة اخرى الى ان تكون فريســة اســتقطاب وانحياز من لون مختلــف. وكلما اخفقت الدولة في لبنان في ان تتســع للموالين والمعارضين معاً كلما وضعت نفسها على طريق الانهيار.

مسؤولية كبيرة وخطيرة ان تكون السلطة متهمة في جريمة الاثنين. فإذا لم تكن مسؤولة عما حصل فمن يكون المسؤول. خلال الحرب الأهلية لم تكن هناك دولة، ولم تكن هناك جهة مسؤولة. فما هو العذر اليوم؟

انــه خذلان فادح ان تكون هذه الدولة غير مرغوب فيها في تشــييع رفيق الحريري، وحدهم الاصدقاء من الداخل والخارج مرحب بهم لتقديم واجب العزاء. كان ذلك موقفاً عفوياً وطبيعياً لا جدال فيه، وزاد في تبريره ان ممثلي الدولة الذين تبرعوا بالمعطيات الأولية للتحقيق بدوا كأنهم يريدون تســجيل الجريمة في ملحــق بجرائم الحرب الاهلية التي تعــذر الوصول الى مرتكبيها ومدبريها والآمرين بها. بل بدوا كمن يريد بيع قصة الشاب الملتحي في شريط الفيديو، على ما فيها من تلفيق مفتعل.

ومــع ذلك، حذار، فقــد تكون هناك نية لابتكار حالة عراقية، بل «حالة زرقاوية» في لبنان، مع فارق جوهري هو ان الجهة المسماة دولة أو حكومة متهمة بأشياء كثيرة في بغداد، لكنها ليست تحت الشــكوك في رعاية هذا الارهاب واســتخدامه في الصراع الداخلي. من هنا ان السيناريو الــذي تبدو الدولة في لبنــان كأنها تتبناه يحمل من الرعونة أكثر مما ينجح في طمأنة المواطنين الذين لم يعد في الإمكان خداعهم.

إذا لــم يكــن لدى هذه الدولة ما تخفيه أو تخشــاه فلماذا ترفض التحقيــق الدولي، واذا لم يكن هناك ما يشــوب الاســتقلال والسيادة في لبنان، ولا ما يشــوب النزاهة والشفافية، ولا ما يشوب حرية القضاء، فلماذا لا يثق السادة الاجانب المتدخلون بالتحقيق الداخلي. هذه اشكالية موجودة وســائدة منذ «عودة» الدولة وكأن الحرب الاهلية لم تنته، بل انتقلت فوضاها الى الدولة المنزوع استقلالها والمستباحة سيادتها والمستسلمة لرعاتها المأزومين.

اذا كان القرار ١٥٥٩ يرمي حقاً الى اســتعادة الاســتقلال والسيادة للبنان فإنه مقبل على اشــعال حرب في لبنان، وقد يكون رفيق الحريري ضحيتها الأولى المبكرة. ومن شأن أصحاب هذا القرار ان يدركوا ان المعركة قد بدأت بجريمة الاثنين، فإذا لم يكونوا جادين، واذا كانت لهم اهداف مبطنة غير تلك المعلنة فلا داعي لخداع اللبنانيين مجدداً. وليعلموا ان اللبنانيين سئموا كل أنــواع التدخلات الخارجية «الأخوية» منها وغير الأخويــة، طالما تتعامل مع بلدهم على انه مجرد ساحة لصراعاتهم.

عبدالوهاب بدرخان

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية